نصار عبد الله
صوت جديد فى الشعر المصرى

يبرز صوت الشاعر نصار عبد الله متميزا بين شعراء جيله الذين أصطلح على تسميتهم بجيل السبعينيات. فقد استطاع من خلال ثقافة بالغة التنوع أن يبنى رؤيته الشعرية عبر مفهوم مركب وعميق للواقع والشعر على حد سواء، كما جاء تشكيله الفنى وثيق الصلة بتراث القصيدة الحديثة ولكنه يمتد بهذا التراث فى اتجاه تطوير الأدوات الفنية بما يلائم مزاج الشاعر وموهبته وثقافته. ولابد فى البداية من الإشارة إلى الركيزة الثقافية لهذا الشاعر لأنها تؤثر بكل تأكيد فى أعماق تجربته الشعرية فقد درس الاقتصاد والعلوم السياسية ثم درس القانون قبل أن يتخصص فى الفلسفة ولكنه لم يتخل فى كل مراحل دراسته عن النظر إلى نفسه باعتباره شاعرا.. ولعل الشاعر والفيلسوف قد اعتنقا فى وجدانه بحيث أصبح عسيرا علينا أن نعزل أحدهما عن الأخر.. تمثلت تجربة الشاعر نصار عبد الله الشعرية فى عدد من الدواوين. كان ديوانه الأول «الهجرة من الجهات الأربع» مشتركا مع عدد من شعراء جيله ثم جاء ديوانه الثانى مستقلا وهو «قلبى طفل ضال» عام ١٩٧٩م، وصدر ديوانه الثالث «أحزان الأزمنة الأولى» عام ١٩٨١م وأخيرا ديوانه الرابع «سألت وجهه الجميل» عام ١٩٨٥م. ولا نكاد نميز مراحل ذات طابع فنى عبر دواوينه بل إننا نجد نسيجه الشعرى ابتداء من ديوانه

«قلبى طفل ضال» حتى ديوانه الأخير يتخذ ملامح شـبه متجانسة وإن كان النضج والبراءة الفنية وتطوير العناصر الأساسـية فى تجربته تأخذ مسـاحة ملحوظة فى دواوينه الأخيرة وتتداخل فى رؤيته الشعرية أفاق الرومانسـية بالتقاطعات الحادة مع الواقع.. ولكن بؤرة عالمه الشـعرى تظل مسـكونة بهذا الهاجس الميتافيزيقى حول الوجود والعدم والحب والكراهية والحلم واليقظة. وما يميز هذا الهاجس الميتافيزيقى عن الرؤية الفلسـفية عند غيره من الشـعراء أنه يؤسس عالمه على ركائز حائرة من الواقـع الذى يتبدى عابرا وشـديد التقلب. إن أهم خصائصه الفنية هى الكثافة الإيقاعية والموسيقية التى يجعل منها مهادا لأوجاعه وهو يعرف أن هذه الكثافة ذات جاذبية خاصة فيسـرف أحيانا فى اللعب بالألفاظ ويفشل أحيانا فى إقناعنا بتلقائيته.. يقول فى قصيدته «تلك الأيام»:

بينكمو تلك الأيام نداولها
ونغيرها ونقلبها ونبدلها
الخاسر فيكم من يحيا يحملها
ويظل يسير يسائل عن آخرها
آخرها يا أعمى أولها
تلك الأيام بما فيها
لا يأمن قمتها من يحيا فوق أعاليها
لا يلعن سافلها من ضاق به سافلها
فغدا سوف نداولها
تلك الأيام بما فيها
الغانم فيكم...

من داس على فتنتها ومكائدها ولواهبها
من يجعلها تحمله دوما
لا من يحيا دوما يحملها

والشـــاعر يوحى لنا فى هذه القصيدة بنزعة شـــبه صوفية ولكنها فى الواقـــع تعبيـــر عن ولعه المســـتمر بالجدل حتى لتنبثـــق المفارقة حادة وكاشفة ومليئة بالدهشـــة فى معظم قصائده.. إن المفارقة التى تأتى من الملاحظـــة القوية والعميقة للحركة الجدلية فى المواقف الإنســـانية تعد من أبرز الوسائل الأسلوبية عند هذا الشاعر وهو لا يفتعلها وإنما يسوقها فى بساطة شديدة فيثير فينا الدهشة والتعاطف. يقول فى قصيدته «مرثية وجه عدو أليف»:

كان مزيجا من كلمات الحكماء وأفعال الحمقى
وأنا كنت المزج الآخر من كلمات الحمقى وسلوك الحكماء
قال لنا: إن دماء الشهداء
لن تصبح أبدا نهرا من ماء
قال وقاتل بين صفوف الجيش الزاحف لا يدرى
أن الجيش الزاحف جيش الأعداء..

إن تجربة الشـــاعر نصار عبد الله فـــى دواوينه تكاد ترتكز على نوع من التأمل الفلســـفى فى هموم الوطن وتحولاته كما تشـــغله فكرة الموت وتوشـــك أن تتعادل فى وجدانه مع قضية الحياة ذاتها ذلك لأن الموت يتجســـد فى صور بالغة القرب من الشـــاعر فهو يراه فى أبيه أو أخيه أو أصدقائه أو شـــهداء الوطن ولا شـــك أن الحب الذى يرتبط بمفهوم عميق

للجمال يأخذ حظه من هذه التجربة وإن كان لا ينجو هو الآخر من حيرة الفلسفة.. إن حبه يتخذ أشكالا قاسية فهو مرة يأخذ شكل القطيعة أو سوء الفهم أو الرحيل.. وقد يتبدى فى صورة ذكرى لا سبيل إلى استعادة جمالها مرة أخرى.. لهذا نرى الشاعر يبتهل فى نشيد عذب كما يحدث فى قصيدته «تنوعات على حزن قديم»..

أعدنى ولو بسمة يا إلهى
ولو دمعة فوق خد حبيبى البعيد
أعدنى شعاعا من الدفء أو غيمة فى الشتاء
أعدنى ولو قطعة من جليد
ولو أحرفا فى خطاب شريد
ولو طابعا فى سلال البريد
أعدنى فإن المسافات تنهش قلبى
تمزق قلبى وتلقمه للرياح

ولا شك أن الشاعر كان أقرب فى ديوانه الثانى «قلبى طفل ضال» إلى العفوية الشعرية وبراءة الدهشة أمام التجارب الأساسية فى الحياة مثل الحب والحلم والموت.. ولكن الأيام قد علمت الشاعر كيف يلجأ إلى استخدام حيله الفنية فصارت الصورة الشعرية فى دواوينه التالية أقرب إلى الواقع وإلى إدراك الحواس المباشرة كما ساعده التركيز الشديد على تصفية لغته من الاستطرادات التى تمثل عبئا على كثير من قصائد الشعر الحديث ورغم اقتراب لغته من لغة النثر والإلحاح على السجع القصير إلا إننا لا نفلت أبدا من إسار جاذبية عالمه الشعرى

الــذى يتغذى على تراث خصب من الإشــارات الثقافية ويصعب تعقب ذات الشــاعر والكشف عن مواجعها الخاصة وسط حيله ومرواغاته فهو دائمــا يصرفــك عن تعقبه بالاندماج فى العالم الــذى يقوم ببنائه بعناية شــديدة بالتفاصيل.. إن ولع الشاعر بالمزاوجة بين الشعر والفكر يجعل من بعض قصائده مجرد صياغة لأفكار عاشت طويلا فى وجدانه دون أن تتجســد فى حدث خارجى أو تجربة روحية.. ولكن وعى الشاعر بهذا الاتجاه فى نفسه يجعله حذرا من الاقتراب الشديد من الأفكار المباشرة وكثيــرا ما يلجأ إلى الجمل القصيرة ليحد مــن فرط الاندفاع فى التأمل كما يعتمد على الإيقاع الجهير كوسيلة لإحياء روح الشعر فى القصيدة، ولا شــك أن التركيز يجعل مــن أحكام العمل الشــعرى قريب المنال، ولكنــه فى الوقت نفســه لا يعطى انطباعا عميقا بالنمــو الفنى للقصيدة بــل يوحى دائما بالحذر والوعى والقصد إلى التوقف عند ذروة مدهشــة بــدلا من التمادى فى تطوير غير مأمون العواقب.. ولكن بعض التجارب تغلبه فتظهر طبيعة الشاعر أشد عنفوانا وتتدفق الصور الموحية عبر لغة حية مرنة ذات صلة بالحدث مثل قصيدة «الرحيل عن أولا» فى ديوانه «أحزان الأزمنة الأولى» يقول الشاعر نصار عبد الله:

أرحل الآن عن الأرض التى تمزج أحزانى بلون الخضرة والماء
ولون اللهفة الغامض والعشق وتذرونى مع الضوء
قليلا فقليلا وتوارى جرحى الملتاع بكفيها..
وتؤوينى إلى الهدب الوثير..
أرحل الآن عن الأرض التى تنبت فى قلبى زهورا..

لست أدرى ما أسمها الآن ولكنى أشم العطر..
إذ ينساب فى الأضلع يجرى مع النبض دماء فى شرايينى..
.. وإذ يتبع خطواتى بأصداء من اللحن الأثير..
أرحل الآن مع الضوء الأخير...

وبعد أن يتحدث الشـاعر عن تجربة عاطفية خلفت فى نفسـه نورا وبهجة يعود فى ختام القصيدة إلى قلعة التأمل النفسى فيخاطب الأرض:

أيتها الأرض التى تقتل أحزانا لكى تنجب أحزانا مريرات كثار
ما الذى يولد فى قلبى وماذا يكبر الآن وماذا..
وأنا أرتحل الآن مع الضوء الأخير...

إن هذا الصوت الشعرى يمتلىء بالوعود ويقدم صورة للشاعر العصرى الذى يتكئ على ثقافة متنوعة وإخلاص عميق لموهبة شعرية متميزة...

❑❑❑